من هم المنعم عليهم وما أحوال خلفهم

أولا : المنعم عليهم

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (58)

ذكر الله من المنعم عليهم ثلاثة عشر صديقا ونبيا في هذه السورة (زكريا – يحي – مريم – عيسى – إبراهيم – اسحق – يعقوب– موسى – هارون – إسماعيل – إدريس– أدم – نوح) ، وقد مضى الحديث عنهم إلا ستة ، وهم الباقين كالتالي :-

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)(52) ذكر الله سبحانه نبيه موسى هنا بخمس صفات (مخلصا ،ورسولا نبيا ،وباعتباره منادى ،ومقربا ،ومنجي بالوحي) ، ثم ذكره الله بوصفه موهوبا له أخاه هارون نبيا ، ما يعني أنهما ذكرا في هذا المقام باعتبارهما أخوان يعضد بعضهما بعضا ، يقول النبي ﷺ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ..**وذكر منهم وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**)[1]، فنبي الله موسى وهارون ارتبطا ببعضهما البعض بقوة الأخوة النسبية ، وكذلك برابطة الدين ، وأخوة الدين أقوى من عرى النسب .

في قوله تعالى :﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (مريم: 52)، يتجلّى الإعجاز البياني في تحديد المكان والجهة معًا؛ فقد صرّح الحق سبحانه باسم الجبل «الطور» إشعارًا بقدسية هذا الموضع الذي شهد شرف النداء الإلهي والتجلّي الرباني، ولو وقع هذا الحدث الجليل في بقعة أخرى من الأرض لنالَت شرف الذكر والتسمية، والله أعلم بحكمته. أما تخصيص النداء بالجانب «الأيمن»؛ فقد ذهب المفسرون كالطبري وابن كثير إلى أنه يمين موسى عليه السلام حين أقبل من مدين، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى بركة التيمن الذي هو سُنّة الأنبياء جميعًا، وشعار أهل الجنة، فضلًا عن كونه مظهرًا من مظاهر التكريم والتشريف في حضرة من كلتا يديه سبحانه يمين مباركة.





[1]) رواه البخاري ج3 ص 51 رقم 620

وقد جاء هذا النداء الإلهي وموسى عليه السلام في خلوة تامة وعزلة عن الخلق بأمر ربه، ليتأهل قلبه لتلقي أنوار الوحي. وهنا تبرز قاعدة تربوية عظيمة يقررها القرآن الكريم في قصص الأنبياء؛ وهي أن الخلوة الصادقة مع الله هي مِفتاح الفتوحات الربانية. فكما أينعت ثمار الاصطفاء في محراب زكريا، وتجلّت الكرامات في محراب مريم، وتحقق اليقين في عزلة إبراهيم عليه السلام، تكرر المشهد ذاته مع موسى عليه السلام في عزلة الطور؛ ليكون ذلك تمهيدًا لأعظم منقبة اختُصَّ بها، وهي تكليم الله له بلا واسطة، كما قال تعالى :﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾(البقرة: 253).

في قوله سبحانه :﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (52) يرتقي البيان القرآني إلى ذروة التكريم؛ أي قرّبناه تقريب تشريف ومكانة، لا تقريب مسافة، ليكون مناجيًا لربه. فإن قيل: كيف يُسمّى كلام الله لموسى مناجاة، والمناجاة في اللغة هي المسارّة وخفض الصوت؟ يجيب أهل العلم والتفسير كالقرطبي والرازي: أن الله تعالى أسمع كلامه لموسى وحده، وحجبه عن سمع من سواه .

قال الشعراوي (هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك)[2] .

ولم يبلغ موسى عليه السلام هذه المنزلة الرفيعة مصادفة، وإنما استحقها بصدق مجاهدته، وصفاء عبوديته، وعزوفه عن زينة الدنيا؛ فقد نشأ وترعرع في قصر فرعون حيث الترف والملك والفتن، فظل قلبه معلقًا بالملأ الأعلى، معرضًا عما في أيدي الناس. وفي هذا المعنى التربوي العميق يقول النبي ﷺ (**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**) [3] ؛ وقد بيّن الإمام السيوطي المراد بقوله: (الهرج: أي الفتنة واختلاط أمور الناس)[4]، (فمن تشاغل بالعبادة في تلك الحال كان متشاغلًا بما أُمر بالتشاغل به، تاركًا لما قد تشاغل به غيره من الهرج المنهي عن الدخول فيه) [5].

وهنا تتجلى صورة فريدة من صور العزلة التربوية؛ وهي «**عزلة القلب وسط الزحام**»، التي يعبر عنها العلماء بقولهم: «الكائن مع الخلق بجسده، البائن عنهم بقلبه». فلم تكن عزلة موسى في شبابه عزلة أبدان وهروبًا من الواقع، بل كانت عزلة روح وقلب؛ فلم تزده الإقامة بين جدران قصر الطاغية إلا أنسًا بالله، ورحابة في جنابه، حتى صار في قلب قصر فرعون عبدٌ يُقرّبه الله ويناجيه، حيث لا يخطر ذلك على بال بشر.

إن هذه القصة القرآنية ترسم للمؤمن منهجًا تربويًا واضحًا: وهو أن القرب من الله لا يُنال بالأماني، وإنما يُدرك بصدق الإقبال، ومجاهدة النفس، وإعمار الخلوات بالعبادة؛ مصداقًا لقوله تعالى في الحديث القدسي» :وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) [6] ، وقوله سبحانه في الحديث القدسي الآخر (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**)[7]؛ فإذا أحب الله عبدًا، أدناه وقربه، وجعل له من لدنه نورًا واصطفاءً.

---

[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5568
[3]) رواه مسلم ج14 ص 187 رقم 5242
[4]) الديباج على مسلم ج6 س 267
[5]) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص 238
[6]) رواه البخاري ج22 ص 409 رقم 6856
[7]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021

قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (53) تتجلى قيمة المؤازرة والأخوة الإيمانية؛ إذ أفاض الله من فيض رحمته على كليمه موسى عليه السلام، فوهبه أخاه هارون نبيًّا، ليكون له عونًا وسندًا وعضدًا في حمل أمانة الرسالة وتبليغ الدعوة.

إن أعظم مظاهر الأخوة الصادقة أن يشدَّ الأخ أزر أخيه ، فيقف معه ضد طاغية مثل فرعون ، وأن يكونا كالجسد الواحد والبنيان المتراصّ؛ وقد صوَّر النبي ﷺ هذا التلاحم الإيماني بأبلغ بيان فقال (**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) [8]. وبهذه المِنَّة الإلهية، غدا موسى وهارون عليهما السلام ظهيرين متعاضدين، يأنس أحدهما بالآخر في وحشة الغربة، ويستقوي به في ميدان المواجهة العاتية أمام طغيان فرعون وملئه، مصداقًا لقوله تعالى في سورة القصص :﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ (القصص35).

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية، أي: "أجبنا سؤاله في أخيه فجعلناه نبيًّا معه كما سأل"، وقال العلامة السعدي " فإن الله من رحمته بموسى عليه السلام، أن أجاب سؤاله، وأشرك أخاه هارون في أمره، ليعينه ويساعده على طاعة ربه . وهنا تتجلى قاعدةٌ تربويةٌ ودعويةٌ خالدة، وهي أن العمل الجماعي والتكامل بين الدعاة والمصلحين سنةٌ ربانيةٌ لتخفيف أعباء الطريق ومضاعفة الأثر.

وهكذا تتوالى نفحات الرحمة الإلهية على صفوة الخلق وأهل الإيمان، حين يقيّض الله لهم في منعطفات الحياة ومشاق الدعوة بطانةً صالحةً وأنصارًا أوفياء يخففون عنهم وطأة الطريق:

ففي سيرة سيد المرسلين ﷺ سخَّر الله له الصدِّيق أبا بكر رضي الله عنه؛ فكان له السند والمصدِّق حين كذَّبه الناس، والمواسي حين جفاه القوم، والصاحب في الغار، والخليفة الراشد من بعده.

وفي قصة نبي الله زكريا عليه السلام :استجاب الله دعاءه حين خاف انقطاع أثر الدعوة من بعده، فوهبه ابنه يحيى عليه السلام؛ ليكون وارثًا للنبوة وحاملًا للواء الرسالة.

وفي قصة الصدِّيقة مريم عليها السلام :أيدها الله بابنها عيسى عليه السلام؛ فأنطقه في المهد ليكون لها برهانًا ساطعًا، ومدافعًا بليغًا يبرِّئ ساحتها، وناصرًا يشدُّ أزرها.

وقد خَّص النبي ﷺ هذه السنة الإلهية في اصطفاء الأعوان للأنبياء بقوله (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا)[9]؛وقد أوضح الإمام المناوي دلالة هذا اللفظ بقوله أي: "وزيرًا، أو ناصرًا، أو خليلًا يختص به ويخلص له" [10] .

مما تقدم نتعلم أن البحث عن الصاحب الصالح، وبناء جسور الأخوة في الله، والتعاون على البر والتقوى، ليست مجرد فضائل أخلاقية، بل هي من أعظم أسباب الثبات والنجاح في الحياة؛ فالمؤمن قليلٌ بنفسه، كثيرٌ بإخوانه.

قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا] (54) يتجلى العوض الإلهي ثمرة التسليم المطلق ، فتكون المكافأة جبرا للوحشة وكسرا للعزلة بعد أن فارق الخليل إبراهيم عليه السلام قومه وأباه في سبيل الله، فلم يتركه ربه لألم الغربة؛ بل آنس وحدته، وجبر خاطره، فوهبه إسماعيل عليه السلام ليكون له عوناً وسنداً وامتداداً للرسالة.

قال الإمام ابن كثير في وصفه بـ "صادق الوعد" (وذلك لأنه ما وعد شيئاً إلا وفى به؛ ومن أعظم ذلك أنه وعد أباه أن يصبر على ذبحه فوفى بذلك، واستسلم لأمر الله)[11] .

---

[8]) رواه البخاري ج2 ص 289 رقم 459
[9]) رواه البخاري ج9 ص 443 رقم 2634
[10]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 694

فقد نشأ إسماعيل في كنف أبيه إبراهيم على الرضا والتسليم ، وقد سَلَّما أمرهما لله، فتشرّبت روحه معاني الطاعة المطلقة. وحين جاء الابتلاء الأعظم، تجلّى صدق الوعد في أبهى صوره؛ إذ لم يتردد الابن البارّ حين قال لأبيه (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات 102) لقد قطع إسماعيل على نفسه عهداً بالصبر على الذبح، فوفى بعهده عملاً لا قولاً؛ وحين أسلما أمرهما لله واستسلما لقضائه، وتلَّ الأبُ ابنه للجبين، جاء الفرج الإلهي والرحمة الربانية بالفداء العظيم :(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)(الصافات 107) .

وفي قوله (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)(55). يتجلى مفهوم القيادة الأسرية الرشيدة وبناء البيت المسلم ، وذلك ينبثق من ركيزة قوامة الرجل ، ومفهوم تلك القوامة ، وهي نعمةٍ عظيمة امتنَّ الله بها على إسماعيل ؛ إذ جعله إماماً لأهله في الخير، وقائداً لهم للنجاة. وهنا يبرز إسماعيل عليه السلام في صورة قدوة للزوج الصالح والأب المربي الذي يدرك أن مسؤوليته تجاه أسرته تتجاوز توفير المتاع الدنيوي الفاني إلى تأمين نجاتهم في الآخرة.

فلم يضيع كثير من الأوقات للاستمتاع بالدنيا مع أهله ، ولم يخص إسماعيل معهم في ملذات العيش، بل جعل أولويته الكبرى تزكية نفوسهم وربط قلوبهم بالخالق؛ فكان يأمرهم بـ الصلاة التي هي صلة العبد بربه وتطهير لروحه ، ويحثهم على الزكاة التي هي إحسان للخلق وتطهير للمال والنفس من الشح ، فحقق بذلك الموازنة بين الروح والمادة.

ونظير ذلك قول الله تعالى مخاطباً نبيه وأمته :(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طه 132)، وقوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) (التحريم 6)

وهذا المنهج التربوي الفريد الذي سار عليه إسماعيل عليه السلام هو ذاته منهج خاتم الأنبياء محمد ﷺ في بيته؛ فقد كان أشد الناس حرصاً على إيقاظ هم أهله للآخرة، وتذكيرهم بالله في كل حين ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَقَالَ (سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ) [12] ، أشار ابن حجر إلى أن القصد من صيغة الاستفهام (التحريض على إيقاظهن ، يريد أزواجه لكي يصلين)[13]، يعنى (من يوقظهن للصلاة بالليل ، وهذا يدل أن الصلاة تنجى من شر الفتن ، ويُعتصم بها من المحن)[14].

وعن عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَةً فَقَالَ أَلَا تُصَلِّيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[15]

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَإِذَا أَوْتَرَ قَالَ قُومِي فَأَوْتِرِي يَا عَائِشَةُ)[16]، فهو يأمرها لينتشلها من الكسل ، مع اقتناعها الكامل بأهمية صلاة الوتر. خلافا لمن لا يزال يتدرب على المحافظة على الصلاة ، فهذا يتعين تحقيق مزيد من الرفق معه .

---

[11]) تفسير ابن كثير ، البحر المحيط لابن حيان

[12] رواه الترمذي ج8 ص 121 رقم 2122 ورواه البخاري

[13]) فتحر الباري ج13 ص 22

[14]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 ص 116

[15]) رواه البخاري ج4 ص 288 رقم 1059

وتتجلى ثمرة الرضا الإلهي في قوله (وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) لأن إسماعيل أصلح بيته وأقام فيه شرع الله، فجزاه الله من جنس عمله؛ فأرضاه في أهله، ورفعه عنده مكاناً علياً، فاستحق وسام الشرف الإلهي

يقول الإمام السعدي" :وهذا من كماله عليه السلام، أنه لم يقتصر على تزكية نفسه، بل سعي لتزكية أهله، فأمرهم بأفضل الأعمال وهي الصلاة والزكاة؛ فمن قام بحق الله وحق أهله، كان عند ربه مرضياً "[17]

إن المحبة الصادقة للأهل لا تكتمل إلا بالسعي الحثيث لجمعهم في الجنة؛ فالأب أو الزوج الذي يوقظ أهله لصلاة الفجر، ويذكرهم بالصدقة والقرآن، هو في الحقيقة يبني حصناً منيعاً يحمي أسرته من الفتن، ويستجلب لبيته البركة والرضا من الله.

مما تقدم نتعلم أن جبر العزلة يكون –في الأصل– بأن يهب الله للمسلم ذريةٍ صالحة، ويعينه علي بناء البيت على الطاعة والقدوة الحسنة؛ إذ تتجلّى في هذه الآيات الكريمات سنن الله التربوية في مكافأة الصابرين، وترسم ملامح القيادة الأسرية الرشيدة التي تجعل من البيت محضناً للإيمان وملاذاً للسكينة.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) (57) ذكر إدريس في خضم ذكر المنعم عليهم من المهتدين ، وكل من ذكروا من قبل كانوا مذكورين بصفتهم كأفراد في أسرة ، أي بصفته كأب ، ابن ، ابنة ، جد ، أخوان ، زوج ، لكن ولأن المجتمع المسلم يتكون من أفراد وأسر ، فلعل من المناسب أن يذكر السياق هنا نبي الله (إدريس) كفرد وليس كعضو في أسرة ، ليستبين بذلك فريق المنعم عليهم والذين يشار إليهم كذلك في سورة الفاتحة .

وقد أنعم الله على إدريس برفعة المكانة[18]، قال الرازي (اعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة)[19].

وقد ذكر مع الصابرين في قوله ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: 85-86) .

وروي عن إدريس كثير [20] مما لم يثبت [21]. وقيل أنه جاء قبل نوح ، فكان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يُقُلْ : (رسولاً نبياً) ، (لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة)[22].

---

[16]) رواه مسلم ج4 ص 98 رقم 1228

[17]) تيسير الكريم الرحمن

18) ويقول بعض الباحثين في الآثار المصرية ، أن إدريس تعريب لكلمة « أوزريس » المصرية القديمة . . وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم .
قال القطان (وقد نُسجت حول إدريس خرافات وأساطير ، ونُسب إليه انه مصدر لجميع العلوم ، واول من خطَّ بالقلم ، وأولُ من بنى الهاكل ومجّد الله فيها ، واول من نظر في علم الطب ، وألّف لأهلِ زمانه قصائد موزونة في الأشياءِ الأرضية والسماوية ، وغير ذلك كثير جدا . وكلّها أخبار لم تؤيد بنقل صحيح ، ولم يسنِدها نصٌّ قاطع ، ومن أراد الاطّلاع عليها فعليه الرجوعُ الى كتاب : قصص الانبياء ، للمرحوم عبد الوهاب النجار) تفسير القطان ج2 ص 398 .

[19]) مفاتيح الغيب ج21 ص 199

[20]) نقل ابن عاشور في التحرير والتنوير ج16 ص 57 (ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين وسار أخنوخ مع الله. قيل: هو أول من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأول من وضع الخط؛ وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأول من علم الناس الخياطة. فكان هو مبدأ من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية)

[21]) قال ابن المطهر :في البدء والتاريخ ج1 ص 128
جاء في كتب التاريخ (سمي إدريس لكثرة درسه ن وهو أول نبي أعطي الرسالة بعد آدم وكان مستخلفا خلافة نبوة لا خلافة رسالة ، وإدريس أول من خط بالقلم بعد آدم ، وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود وكان ولد آدم حي ونبأه الله بعد وفاة آدم وأنزل عليه النجوم والطب ، واسمه عند اليونانيين "هرمس" ، وكان يصعد له من العمل في كل يوم مثل عمل بني آدم كلهم، فشكر الله ذلك له فرفعه مكانا علياً ، واختلف الناس كيف رفع، في كتاب أبي حذيفة أن الملائكة كانوا يصافحون بني آدم في زمن ادريس ويزورونهم في رحالهم ومجالسهم لطيب الزمان وصلاح أهله فاستأذن ملك الشمس في زيارته فأذن له فسأله ادريس أن يرفعه إلى السماء ليعبد الله فيها مع الملائكة فرفعه الله فهو في السماء الرابعة

[22]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5574

لكن مما يخال للعلماء أنه قيل في حقه ما روي عن رسول الله ﷺ قَالَ (**كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**)[23]، فأخبر النبي ﷺ أن نبياً من الأنبياء السابقين (قيل هو إدريس أو دانيال عليهما السلام) كان يخط في الأرض، وكانت خطوطه تصيب الحق لأنها كانت بوحي من الله.

وقد أجمع العلماء على أن الخط في الأرض محرم، لأن العلم الذي كان لدى ذلك النبي قد انقطع بموته، ولم يعد لأحد طريق لمعرفته.

وقد بيَّن النووي أن هذا الأمر غير مشروع في ملتنا إلا بشرط أن يوافق الخط خط النبي ، وهذا مستحيل ، فهو شرط تعجيز قال النووي (فالصحيح أن معناه من وافق خطه فهو مباح له . ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح ، والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين بها)

وقد بيّن النووي غرض النبي من الحل المقترن بشرط تعجيزي أنه لأجل حفظ مقام هذا النبي ، فقال (وإنما قال النبي ﷺ فيمن وافق خطه فذاك ولم يقل هو حرام بغير تعليق على الموافقة لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط ، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا ، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه وكذا لو علمتم موافقته ، ولكن لا علم لكم بها)[24].

قال العلماء يعني: (أن نبياً من أنبياء الله عز وجل **أوحى الله إليه أن يقوم بهذا الخط، وأما غيره فليس له ذلك**، ولهذا علق ذلك على أمر لا يمكن الوقوف عليه ومعرفته فقال: (فمن وافق خطه فذاك)، ومن المعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يوافق ذلك الخط، فدل على أن الخط غير سائغ، فيكون هذا الحديث متفقاً مع النصوص الأخرى الدالة على أنه لا يستعمل الخط في الأرض، وإنما هو إخبار عن أمر غيبي قد مضى، فهذا تعليق على شيء لا يمكن الوصول إليه والوقوف عليه، والنتيجة أنه لا يجوز للإنسان أن يخط في الأرض)[25].

قوله (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (58) هؤلاء جميعا المنعم عليهم ،المذكورون في سورة الفاتحة ،الذين ندعو الله كل ركعة أن يهدينا إلى صراطهم المستقيم (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

فإذا سألنا الله صراطهم، فعلينا أن نتحلى بسمتهم التي ختمت بها الآية :**تأثر القلب، وخضوع الجوارح، والانكسار أمام آيات الرحمن** .فالهداية ليست مجرد معرفة نظرية أو دعاء على اللسان، بل منهج حياة يبدأ بخشوع القلب عند سماع الوحي، ويظهر في السجود لله والعمل بطاعته، ليكون العبد امتدادًا صادقًا لذلك الموكب المبارك من الأنبياء والصالحين

إنَّ المتأمل في سياقِ الآية الكريمة، حين يستعرضُ أولئك الصفوةَ المنعَم عليهم، لَيقفُ على مَلحظٍ جليلٍ ودلالةٍ بالغةِ العمق؛ إذ يلحظُ أنَّ اللهَ سبحانه قد خصَّ بالذكرِ أصولاً شريفةً وأنساباً عريقة، فجعلهم من ذريةِ آدمَ أبي البشر، وممّن نجا وحُمل في فُلك نوحٍ عليه السلام، ومن سُلالة إبراهيمَ خليلِ الرحمن، وإسرائيلَ نبيِّ الله. فهؤلاء جميعاً إمّا أن يجمعهم شرفُ الانتساب إلى دوحةِ النبوةِ الباسقة، أو ينضوون تحت لواءِ أتباعهم الذين ساروا على هديهم.

---

[23]) رواه مسلم ج 3 ص 140 رقم 836
[24]) شرح النووي على مسلم ج5 ص 23
[25]) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج22 ص 253

ثم تأتي اللفتةُ القرآنيةُ الجامعةُ لتُتمَّ العِقدَ الفريد بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: 58]؛ ليشملَ الفضلُ الإلهيُّ كلَّ مَن اصطفاه اللهُ وهداه للإيمان من سائرِ الخلق، وإن لم يربطهم بالأنبياءِ نسبٌ قريب، بل جمعتهم بهم آصرةُ العقيدةِ وشرفُ الصحبةِ والاتباع؛ تحقيقاً لقولِ المصطفى ﷺ : «إِنَّ آلَ أَبِي بَنِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» متفق عليه . وفي هذا السياقِ البيانيّ يقولُ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسيره: «أي: جعلناهم من ذريةِ هؤلاءِ المذكورين؛ ليدلَّ على أنَّ الخيرَ فيهم متوارث، وأنَّ شرفَ النسبِ إذا اقترنَ بالإيمانِ كان نوراً على نور، ثم عمَّم بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ لئلا يُظنَّ أنَّ الفضلَ مقصورٌ على النسبِ دون العمل.

وفي تقديمِ ذوي الأرحامِ والأقربينَ في الذكرِ والاصطفاء، ترسيخٌ لقاعدةٍ أصيلةٍ في فقهِ الدعوةِ والإصلاح؛ وهي أنَّ الأقربينَ هم أولى الناسِ بالبلاغِ والهداية، وأحقُّهم بالرعايةِ والعناية. فهي الدائرةُ الأولى التي ينطلقُ منها نورُ الرسالةِ ليمتدَّ أثرُها إلى الآفاق، مصداقاً للأمرِ الإلهيّ الصريحِ لخاتمِ الأنبياء ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. وقد أشارَ الإمامُ الطاهرُ ابنُ عاشور في «التحرير والتنوير» إلى هذه الحكمةِ البالغة، مبيّناً أنَّ تذكيرَهم بأصولهم الصالحةِ هو استنهاضٌ لهممهم، وتنبيهٌ على أنَّ القرابةَ تستوجبُ مزيدَ حرصٍ على النجاةِ والفلاح، فصلاحُ الأسرةِ والذريةِ هو اللبنةُ الأساسُ في بناءِ المجتمعِ المؤمنِ المتماسك.

قوله (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) قال ابن عجيبة (هذا استئناف؛ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له ، مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب ، وكمال النفس والزلفى من الله عزّ وجلّ)[26].

ودلت الآية على أن جميعهم يشتركون في أداء الصلاة لله ، فهذا هو دأبهم مع كتاب الله وآياته ، قال الرازي (دلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله)[27].

وقد كان الصحابة يقتدون بحالة الخشوع هذه المصاحبة للأنبياء جميعا ، فعن ابن عمر "أن عمر قرأ سورة مريم، فسجد ثم قال هذا السجود فأين البكاء"[28]

وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا وَتَغَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا)[29].

فالانفعال والخشوع عند قراءة القرآن يظهر في الأداء الصوتي ، ولذلك يستحب لقارئ القرآن أن يحسن صوته بالقراءة قال رسول الله ﷺ **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)**[30]، فإحسان تلاوته أدعى للخشوع ، يقول رسول الله ﷺ **(حسن الصوت زينة القرآن)**[31] .

---

[26]) البحر المديد ج3 ص 472
[27]) تفسير الرازي ج4 ص 307
[28]) كنز العمال ج2 ص 314 رقم 4097 ، شعب الإيمان للبيهقي ج2 ص 365 ، مصنف ابن أبي شيبة ج14 ص 8
[29]) رواه ابن ماجة ج4 ص 235 رقم 1327 وضعفه الألباني : لكن معناه صحيح
[30]) رواه البخاري ج23 ص 55 رقم 6973
[31]) رواه الطبراني : المعجم الكبير ج10 ص 82 رقم 10043 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 429 رقم 1815

ثانيا

من الخلف مفرطون ، ومنهم تائبون

قال تعالى (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

إنها لَعمري قمة الخيبة ومنتهى الحسرة، أن يعقب أولئك الصفوة الذين أسبغ الله عليهم نعمة الهداية، جيلٌ رديءٌ ينحرف عن الجادة؛ فيُضيعون عماد الدين وصلة العبد بربه، وينكبون عن سنن الأنبياء وهدي المرسلين، ليستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، منقادين خلف أهوائهم وشهواتهم، مستحقين بذلك الوعيد الشديد بالهلاك والضلال في الدنيا والآخرة.

قوله (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (59) فدوام الحال على وتيرة واحدة غالباً يكون من المحال ، ولذلك تتبدل الأحوال كل زمان ، يقول النبي ﷺ (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[32].

وهذا التبدل في الأحوال وتتابع الفتن عبر الأزمان، هو ما أنبأ به الصادق المصدوق ﷺ محذرًا أمته من غوائل المستقبل؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، فقال ﷺ : (**يَكُونُ خَلْفٌ مِنْ بَعْدِ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ**.[33]]

ولقد وضع النبي ﷺ للمؤمنين منهج الثبات أمام هذا التراجع القيمي وتوالي المحن، فدعاهم إلى الصبر والاحتساب؛ فعن الزبير بن عدي قال: دخلنا على أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال (**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**).[34]ورواه البخاري بلفظ (اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ)[35]

وقد بيَّن الحافظ ابن حجر هذا المعنى: موضحًا إن المراد بذلك تغلب أهل الشر، واندراس معالم الخير، وانتقاص العلم والدين جيلًا بعد جيل. وعلل ذلك بذهاب العلماء فقال (ذهاب العلماء ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بأرائهم فيهدم الإسلام)[36].

---

[32]) رواه البخاري ج9 ص 133 رقم 2458

[33]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 406 رقم 3416 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج7 ص35 ورواه أحمد وابن حبان

[34]) رواه الترمذي ج8 ص 135 رقم 2132 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 206

[35]) رواه البخاري ج21 ص 457 رقم 6541

[36]) فتح الباري ج13 ص 283 ، ص 20

وليس المقصود بإضاعة الصلاة في الآية الكريمة تركها بالكلية فحسب، بل يشمل التفريط في مواقيتها[37]، "**فليس معنى أضاعوها أنهم تركوها بالكلية ولكن أخروها عن أوقاتها** ".

فعَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْصَرَفَ مِنْ الظُّهْرِ وَدَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ أَصَلَّيْتُمْ الْعَصْرَ فَقُلْنَا لَهُ إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنْ الظُّهْرِ قَالَ فَصَلُّوا الْعَصْرَ فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ **تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ** يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)[38].

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين : (هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر إلى المغرب ولا يصلي المغرب إلى العشاء ولا يصلي العشاء إلى الفجر ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس فمن مات ،وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب وعده الله بغي وهو واد في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه)[39].

وكذلك يكون التضييع لها بالإخلال بأركانها، وتفريغها من روح الخشوع والطمأنينة؛ قال الإمام ابن كثير قال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا " [40].فهؤلاء القوم قد فرّطوا في حقوق الله تعالى؛ فإن أقاموا الصلاة أقاموها استخفافًا وتهاونًا لا تعظيمًا واستحقاقًا، ينقرونها نقر الغراب دون أن تستقر فيها جوارحهم أو تخشع فيها قلوبهم.

وقد شدد النبي ﷺ النكير على من يُخلّ بطمأنينة الصلاة وأركانها، فجعلها شرطًا لصحة العبادة وقبولها؛ فقال ﷺ **(لَا تُجْزِئُ صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)**[41]

ويتجلى هذا الأصل العظيم بوضوح في حديث المسيء صلاته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه السلام وقال:(**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**)، فرجع الرجل فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال :(**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**)"ثلاثًا". فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أُحسن غيره فعلمني. فقال ﷺ (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ **حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا**، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ **حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا**، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا][42]

يُستفاد من هذين الحديثين الجليلين أن صلاة العبد لا تصح ولا تبرأ بها ذمته ما لم يُسَوِّ ظهره ويستقر في ركوعه وسجوده وسائر أركانه. وقد أجمع جمهور الفقهاء على أن **الطمأنينة ركنٌ أصيل وفرضٌ لازم** في الصلاة، لا تكتمل إلا به؛ (فإنه نص صريح في أن من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود لا تجوز صلاته، وهو المراد بفرضية الطمأنينة في الركوع والسجود، وإليه ذهب مالك، والشافعي، وأحمد والجمهور، وهو مذهب أبي يوسف، وهو الحق لحديث الباب، ولحديث المسيء في صلاته) [43].

---

[37]) في هذا المعنى تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 267 عن عمر بن عبد العزيز
[38]) رواه مسلم ج3 ص 318 رقم 987
[39]) الكبائر للذهبي ج1 ص 17
[40]) تفسير ابن كثير ج5 ص 243 ، الطبري ج18 ص 215
[41]) رواه أبو داود ج3ص24رقم 729 والترمذي ج1ص498.
[42]) رواه البخاري ج3 ص 205 رقم 715
[43]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج3 ص 194 رقم 885

فالطمأنية ركن من أركان الصلاة وهي الوعاء الذي يحفظ للصلاة هيبتها، ويُحقق للعبد صلتَه الحقيقية بخالقه، فإذا فُقدت الطمأنينة تحولت الصلاة إلى حركات جوفاء لا روح فيها، وهو عين الإضاعة التي توعّد الله أصحابها بالغيّ والخسران.

فقوله (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (59) فلو أنهم لم يضيعوا الصلاة وحافظوا عليها وأدوها بحقها ولم يستخفوا بها لنفعتهم الصلاة في البعد عن الشهوات ، يقول الحق تبارك وتعالى (**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**) [العنكبوت : 45] .





إذ ترتبط إضاعة "الصلاة" باتباع "الشهوات" بعلاقة عكسية وثيقة؛ فالتفريط في الصلاة يقود صاحبه حتمًا إلى الانجراف نحو الشهوات. فهذان الطريقان يسيران في اتجاهين متضادين، ومن سلك أحدهما فقد فارق الآخر بالضرورة.

وفي هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[44]. وقد أوضح الإمام المناوي معنى هذا الحديث مبينًا أن إحاطة النار بالشهوات تعني أنها محجوبة بما تستلذه النفس من متع الدنيا المحرمة شرعًا، سواء كانت محرمة لذاتها أو لأنها تؤدي إلى تضييع واجب. أما إحاطة الجنة بالمكاره، فتعني أنها محجوبة بما كُلّف به الإنسان من مجاهدة النفس فعلًا وتركًا، وقد سُمّيت مكاره لما يلاقيه العبد من مشقة وصعوبة في أدائها؛ فلا سبيل إلى النار إلا باتباع الشهوات، ولا وصول إلى الجنة إلا بتحمّل المشقات[45].

ويؤكد هذا الأصل قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ **حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»[46].

قوله (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (60) فالتوبة تمحو ما قبلها ، شريطة أن تكتمل أركانها ، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (**أَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا قَالَ لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ)[47].

---

[44]) رواه مسلم ج13 ص 448 رقم 5049
[45]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 1002
[46]) رواه البخاري ج1 ص 90 رقم 50
[47]) رواه البخاري ج2 ص 351 رقم 495

فعن أَبي هريرة – رضي الله عنه – ، قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرنِهِ شَيْءٌ ؟) قالوا : لا يَبْقَى مِنْ دَرنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ (**فَذلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَ**) متفقٌ عَلَيْهِ

وعن جابرٍ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ (مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ) رواه مسلم .

وعن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، مَا لَمْ تُغشَ الكَبَائِرُ**) رواه مسلم

وعن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ، قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يقول (مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ **فَيُحْسِنُ وُضُوءها ؛ وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا ، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوب مَا لَمْ تُؤتَ كَبِيرةٌ ، وَذلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**) رواه مسلم .

قوله (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) (61) هذا وعد الله ،وعده لعباده المصلين الموحدين ، الذين يؤمنون بالغيب ، هؤلاء هم الذين انشغلت نفوسهم بما أعدّه الله لهم في الدار الآخرة من نعيمٍ مقيمٍ وجنانٍ خالدة، فغدا يقينهم بالغيب هو المحرّك الأول لهم نحو كل عملٍ صالح؛ تراهم يسجدون لربهم خاشعين وهم لم يروه، ويطمعون في جنته متشوقين ولم يروها، ويستعيذون به من ناره وجلين ولم يروها. وبذلك اليقين الصادق، استحقوا أن ينالوا رضا الله ومراده، وأن يظفروا بوعده الذي لا يُخلف أبدًا.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قَالَ فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ قَالَ فَيَقُولُ **وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا قَالَ يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِي قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ **فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ مِنْ النَّارِ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ **فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ فَيَقُولُ **فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ** قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[48]

قوله (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا) نُزّهت أسماع أهل الجنة عن كل لغوٍ وباطل، لاشتغال ألسنتهم وقلوبهم بذكر الله تسبيحاً وتحميداً؛ إذ يجري التسبيح على ألسنتهم في يسرٍ وفطرة كما يجري النَّفَس في صدور الأحياء دون كلفة أو عناء، مصداقاً لقول النبي ﷺ في وصف حالهم (**يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**)[49].

---

[48]) رواه البخاري ج20 ص 24 رقم 5929

[49]) رواه مسلم ج13 ص 473 رقم 5067

وقد جاء استثناءُ «السلام» من «اللغو» هنا استثناءً منقطعاً[50]؛ ليدلَّ ببلاغةٍ عجيبة على أن ألسنتهم لا تنطق من مألوف كلام الدنيا إلا بالسلام، وما سوى ذلك فلهجٌ بالتسبيح والتحميد. فغدا السلام شعارهم الأوحد في تخاطبهم وتواصلهم، ومن هنا استحقّت الجنة أن يُسميها الله تعالى "دار السلام"

وقد جلّى الإمام ابن القيم رحمه الله سرّ هذه التسمية ببيانٍ شافٍ فقال) :وقد سمّاها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾، وهي أحق بهذا الاسم ، فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام الذي سلمها وسلم أهلها "وتحيتهم فيها سلام" "والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم" والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى "لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم") [51].

قوله (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (62) أوضح المفسرون أن الجنة لا يُعرف فيها تعاقبُ الليل والنهار المعهود في الدنيا، كما أخبر سبحانه: ﴿**لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾ [الإنسان: 13]، وإنما هي ضياءٌ سرمدي ونورٌ دائم لا يغشاه ظلام. وبيّن قتادة رحمه الله المراد بـ «البكرة والعشي» فقال :(فيها **ساعتان**: بكرة وعشي؛ ليس ثَمَّ ليلٌ ولا نهار، وإنما هو ضوءٌ ونور) [52]؛ أي أن لأهل الجنة مقاديرَ زمنية معلومة يتوالى عليهم فيها الرزق والنعيم على نحو ما كانت تتوالى عليهم البكرة والعشي في دار الدنيا، ليدركوا تمام النعمة وتجددها.

ويُجلي هذا النعيمَ المقيمَ حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "**أول زُمْرَة تلج الجنة صُورهم على صورة القمر ليلة البدر**، لا يبصُقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يَتَغَوّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلْوّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخّ ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًّا"[53].

قوله (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) (63) تلك الدار العامرة بهذه الكرامات هي الميراث الخالد الذي يخصّ الله به عباده المتقين. ومن تمام نعيم الله عليهم في تلك اللحظة أن يريهم عظيم فضله ونجاتهم، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ قَالَ (**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا** وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً)[54].

قوله (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) قال الواحدي ("وما نتنزل" كان جبريل عليه السَّلام قد احتبس عن النبيّ ﷺ أيّاماً ، فلمَّا نزل قال له : ألاَّ زرتنا ، فأنزل الله سبحانه "وما

---

50) قال الألوسي : (والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه ، وهو أن يستثنى من ضفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلاً فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين ، وأن يكون من الضرب الثاني منه وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى بأن لا يقدر ذلك ، ويجعل الاستثناء من أصله منقطعاً فيفيد التأكيد من وجه ، ولولا ذكر التنئيم على ما قاله السعد جاز جعل الاستثناء متصلا حقيقية لأن معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام)
تفسير الألوسي ج20 ص 220

51) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 172

52) تفسير ابن كثير ج5 ص 248

53) تفسير ابن كثير ج5 ص 247

54) رواه البخاري ج20 ص 233 رقم 6084

نتنزل إلاَّ بأمر ربك له ما بين أيدينا" من أمر الآخرة "وما خلفنا" ما مضى من أمر الدُّنيا ، "وما بين ذلك" ما يكون من هذا الوقت إلى قيام السَّاعة ، "وما كان ربك نسياً" تاركاً لك منذ أبطأ عنك الوحي)[55].

إنَّ من أعظم ما يمنُّ الله به على عبده في هذه الحياة الدنيا أن يسكب في قلبه السكينة، ويُفيض على روحه الطمأنينة كلما أقبل على محراب العبادة؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: 28). فيعيش العبد في كنف الله آمناً مطمئناً، لا تستخفُّه عواصف الخوف، ولا يُفزعه ما يُفزع الناس، فطوبى لمن اتصل حبل قلبه بالله ووحيه، فنال عاجل بشرى المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة.

غير أنَّ تمام العبودية وكمال الإخلاص يقتضيان أن يدرك السالك إلى الله أن هذه السكينة وتلك الطمأنينة إنما هما ثمرتان عاجلتان، ونفحتان ربانيتان لا ينبغي أن تُقصدا بالعبادة لذاتهما؛ فالعبدُ يُعبد اللهَ لأنه أهلٌ للعبادة، لا طلباً لحظِّ النفس من الراحة والانشراح. ومن هنا، يتعين على المؤمن أن يوطّن نفسه على الصبر والمصابرة في أداء الطاعات وتكبُّد مشاقّها، وإن غابت عنه حلاوة الأنس، أو زايلت قلبه الطمأنينة؛ كما في حال المجاهد في سبيل الله الذي يقف في نحر العدو، فيبتليه الله بالخوف والوجل، تحقيقاً لسنته سبحانه :﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**﴾ (البقرة: 155).

وفي هذا المعنى قرر أئمة أهل السنة وأعلام السلوك المنضبطون بميزان الشرع قواعد جليلة؛ فقد بيّن **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله أن المقصود من العبادة هو امتثال أمر الله ومحبته لذاته، لا مجرد ما يجده القلب من الذوق والوجد، فإن الوجد والسكينة قد يحصلان للمؤمن تارة ويفقدهما تارة ابتلاءً وامتحاناً، ليتبيّن الصادق الذي يعبد الله على كل حال ممن يعبد الله على حرف. كما أشار **الإمام ابن القيم** في" مدارج السالكين" إلى خطورة التعلّق بـ "حظوظ النفس" في الطاعات، مؤكداً أن العارف الصادق هو من يكون "عبدَ الأمر" أينما توجه، لا "عبدَ الحال" والراحة؛ فإن وجد الأنس حمد الله، وإن فُقد منه الأنس وغشيته الكربة مضى في طاعته صابراً محتسباً.

وهو عين ما أرشد إليه أئمة السلوك المعتدلون؛ كـ **الجنيد البغدادي** سيد الطائفة حين عرّف الصدق والإخلاص بأنه" :تصفية العمل من ملاحظة المخلوقين، ومن طلب حظوظ النفس"، وكما قال **أبو سليمان الداراني**" :من عمل لشيء من حظوظ نفسه، فقد نقص من إخلاصه بقدر ما التفت إليه."

وعلى هذا الميزان الدقيق، فإنه وإن كانت الملائكة تتنزل بالسكينة وتُصاحب المؤمنين في مجالس الذكر ومواطن الطاعة ـــ كما ثبت في الصحيح من حديث تنزّل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة للذاكرين ـــ وإن كان المؤمنون يفرحون بفضل الله ورحمته تلك؛ إلا أن كمال التجريد يوجب على العبد أن يُخلّص عبادته حتى من التعلّق بحظِّ صحبة الملائكة أو نيل الكرامات، فلا يلتفت قلبه في عبوديته إلا إلى وجه الله وحده، مستشعراً قوله سبحانه :﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(البينة: 5) ، ليكون بذلك قد حقق أسمى مقامات العبودية الخالصة لله رب العالمين .

قوله (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (65) إن النظر في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما يقذف في قلب العبد الرهبة من خالقهما ، ويحمله على تعظيم ربه ومولاه ، وتلك صورة من صور العبادة لله رغم أنه تعتمد على التفكر والتأمل في الملكوت إلا إنها مثل أي عبادة لله تتطلب مزيدا من الصبر

[55]) الوجيز للواحدي ج1 ص 494

والاصطبار ، ولذلك أمر الله بالنظر إلى السماء مرتين ثم مرة ثالثة في قوله (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك 3- 4) ليتعلم المكلف كيف يتفكر في خلق الله مرة بعد مرة ، فلا يمل من النظر والتأمل .

فلفظ (اصطبر) يعني (شدة الصبر على الأمر الشاق، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل) [56] ، أي (فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء) [57] .

إن تحقيق العبودية الحقة لله يتطلب منا مجاهدةً للنفس وصبرًا على متطلبات الارتقاء الروحي؛ فنحن حين نقف بين يدي الله، نحتاج إلى استجماع كامل طاقتنا الذهنية والقلبية، وتصفية أذهاننا من كل ما يشتت انتباهنا أو يسرق تركيزنا من ضجيج الحياة اليومية.

صحيح أن هذا التركيز العميق والتجرد التام يحمل في بدايته مشقة وتحديًا للنفس، لكنه في المقابل يفتح أبوابًا من السكينة واللذة الروحية التي لا يدركها إلا من عاشها بصدق. هذه الحلاوة الإيمانية لا تُمنح إلا لمن يقبل على العبادة بحضور قلب كامل، ويفتح لها كل حواسه ومشاعره؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

والأهم من ذلك، أن ندرك أن العبادة بمفهومها الشامل لا تقتصر على أداء الشعائر التعبدية فحسب، بل هي منهج حياة متكامل يشمل كل حركة نخطوها، وكل فكرة تخطر ببالنا، وكل نية نعقدها، وكل عمل ننجزه.

إن التحدي التربوي الأكبر هو أن ننجح في توجيه بوصلة حياتنا اليومية نحو الله وحده، وأن نحافظ على نقاء قلوبنا وصفاء نوايانا وسط ضغوط الحياة، ومتطلبات المعيشة، ورغبات النفس، وأعراف المجتمع. هذا التوازن هو جوهر المجاهدة التي تحتاج إلى صبرٍ جميل واستمرارية.[58].

قوله تعالى :﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ يأتي استنكاراً بليغاً يقطع دابر كل ظنٍّ بوجود شبيهٍ أو نظيرٍ أو كفءٍ للخالق سبحانه[59]؛ وكأنه نداءٌ يهزُّ الوجدان: أنَّ لِمُحْدَثٍ فَانٍ أن يُضاهي مَن تفرَّد بالقِدَم والبقاء؟! إنَّ التماثل يقتضي المساواة، والله جلَّ في علاه منزَّهٌ عن المثيل والندِّ، فلا شبيه له في الوجود ولا حتى في خيال الأوهام[60]، ولم يتجرَّأ مخلوقٌ قطُّ على أن يتسمَّى باسمه الأعظم "الله".

ومن عجيب لطف الله وحكمته أنَّ البشر، على تعدد طغيانهم، لم يجرؤ أحدٌ منهم على منازعته سبحانه في صفة «الرحمن»، ولم يتسمَّ بها بشرٌ قط؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا**﴾ (الفرقان: 60). ولذلك أوجز حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما معنى الآية بقوله: «لا يُسمَّى أحدٌ الرحمنَ غيره".[61]

---

[56]) التحرير والتنوير ج16 ص 64
[57]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2793
[58]) انظر في هذا المعنى في ظلال القرآن ج5 ص 103
[59]) تفسير ابن كثير ج5 ص 214
[60]) تفسير القشيري ج4 ص 453
[61]) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج2 ص 515 رقم 3767 قال الذهبي في التلخيص صحيح الاسناد

ويزداد هذا المعنى رسوخاً في القلب حين نتأمل توالي هذا الاسم الجليل في أواخر سورة مريم؛ تارةً في سياق العدل والهيبة :﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**﴾ (مريم: 69)، وتارةً في بيان الإمهال والحكمة :﴿**قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا**﴾ (مريم: 75)، وتارةً في تنزيه جنابه العظيم عن الولد والشريك :﴿**أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾] (مريم: 78)، وقوله :﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**﴾ (مريم: 87-88)، ليختم المشهد بالتنزيه المطلق :﴿**أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾] (مريم: 91-92)

وهنا تتجلى اللطيفة التربوية العظيمة؛ فبإفراد ذاته سبحانه باسم «الرحمن»، يشرع الله للتائبين والمذنبين أوسع أبواب الأمل، ويدعوهم أن يرفعوا أكفَّ الضراعة إلى السماء متوسلين بأسمائه الحسنى، ومستشفعين باسمه «الرحمن» على وجه الخصوص. فليس في الوجود مَن يجيب المضطر سواه، ولا مَن يسمع أنين المشتكين ويبصر خفايا النفوس غيره. ومهما أسرف العبد على نفسه، وتاه في دروب الغفلة والشهوات، يبقى السميع البصير قريباً منه، يترقب أوبته ويفرح بتوبته.

ويا لها من حقيقة تهزُّ القلوب: فعلى كثرة ما اتخذ المشركون من أندادٍ وأصنام، ورغم تعلقهم بالملوك والأسباب طلباً للرزق أو العزة، لم يجرؤ مخلوقٌ قطُّ أن يدَّعي لنفسه صفة «الرحمن»، ولم يخطر ببال عاقلٍ أو جاهل أن يطلب المغفرة والرحمة من غير الله؛ لتبقى الرحمة المطلقة تاجاً يتفرَّد به ربُّ العالمين، وملاذاً آمناً لكل قلبٍ منكسرٍ يعود إليه.